المطلب الثالث

العقل والنقل بين السلف والخلف

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد .

ففد دارت محاور المطلب السابق حول بعض المسائل المتعلقة بالعلاقة بين العقل والنقل، وبينا فيها أن العقل الصريح لا يعارض النقل الصحيح، وأن الهداية الحقيقية تكمن في قيادة النقل الصحيح للعقل الصريح.

وعلمنا أن الضلال الحقيقي يكمن في قيادة النقل الباطل للعقل الصريح، وأن من لم يلتزم بالنقل الصحيح وقدم على القرآن وصحيح السنة عقله ورأيه استحق الوعيد الشديد.

ثم تناول الحديث أسباب التعارض بين العقل والنقل، وأن ذلك مرده إلى سببين اثنين لا ثالث لهما، السبب الأول: عدم ثبوت النقل، وضربنا أمثلة على ذلك، والسبب الثاني: عدم فهم العقل للنقل، وضربنا أمثلة على ذلك أيضا.

وفي هذا المطلب إن شاء الله نتناول الحديث عن العقل والنقل بين السلف والخلف من خلال المحاور التالية:

• أيهما يقدم على الآخر العقل أم النقل؟

قال علماء الخلف من المتكلمين: العقل أصل في ثبوت النقل، فلا بد من تقديم العقل على النقل، فرد علماء السلف وقالوا: العقل أصل في العلم بالنقل، والنقل ثابت قبل العقل.

قال فخر الدين الرازي (ت:٦٠٦هـ): (إذا تعارضت الأدلة السمعية والعقلية، أو السمع والعقل، أو النقل والعقل، أو الظواهر النقلية والقواطع العقلية، فوجب تقديم العقل؛ لأن العقل أصل النقل، فلو قدمناه عليه، كان ذلك قدحا في العقل الذي هو أصل النقل، والقدح في أصل الشيء قدح فيه، فكان تقديم النقل قدحا في النقل والعقل جميعا، ثم النقل إما أن يُتأول، وإما أن يفوض) [(١)].

وقد بالغ أبو حامد الغزالي في تقديسه للعقل، وقوانين المنطق التي استوردها من منطق المشركين كالمسمى أرسطو وأفلاطون، ومن بعده أفلاطين، فقال: (إن من لا يحيط به، فلا ثقة بعلومه) [(٢)].

---

(١) المحصول في علم الأصول للرازي (٣/١١٢).

(٢) القسطاس المستقيم ص١٠٤، ضمن مجموعة رسائل الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت. وأفلاطين رجل يهودي، أدخل الفلسفة في دين اليهود، وأخذ كلام أفلاطون وعدله وزاد فيه، كما فعل ابن رشد وأمثاله في الإسلام ويسمى مذهبه الأفلاطونية الحديثة، أما الأفلاطونية القديمة فهي لأفلاطون. وأفلاطين اليهودي كان قبل الميلاد بأكثر من قرنين، وقد أفسد على اليهود دينهم بهذه الفلسفة. نقلا باختصار عن شرح العقيدة الطحاوية للدكتور سفر الحوالي ٥٦٥/١.

وبالغ الغزالي وغالى غلوا كبيرا في تمجيده، حتى جعله ميزانا يزن به كل العلوم والمعارف الدينية وسواها، فقال: (لا أدعي أني أزن بها المعارف الدينية فقط، بل أزن بها العلوم الحسابية والهندسية والطبيعة والفقهية والكلامية، وكل علم حقيقي غير وضعي، فإني أميز حقه عن باطله بهذه الموازين، وكيف لا، وهو القسطاس المستقيم ؟) [(١)].

وقد نقل بعض الأشعرية المعاصرين عن أبي حامد الغزالي ما يجيز به تأويل نصوص القرآن والسنة حتى لا توهم باطلا، فهي عنده ليست على ظواهرها، لأن الظاهر كما زعم يعارض العقل، ويحمل معاني التجسيم والضلال، فقال: (وقال أبو حامد الغزالي: من أخذ علمه من العبارات والألفاظ ضل ضلالا بعيدا، ومن رجع إلى العقل استقام أمره وصلح دينه) [(٢)].

وهذا الكلام العقلي الذي يقدمونه على النقل، قد جعله المتكلمون قانونا شاملا، أطلقوا عليه ما يسمى بالقواطع العقلية التي يقيسون عليها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

• العقل أصل في العلم بالنقل وليس أصلا في ثبوته.

إذا تعارض العقل والنقل لجهل العقل بما ورد في النقل، أو غاب عنه الفهم الصحيح للأدلة القرآنية والنبوية، وجب علي المسلم العاقل قبل

---

(١) السابق ص ١٠٥.

(٢) حق الله على العباد وحق العباد على الله لطه عبد الله العفيفي ص ١٠٤.

التعطيل، أو التأويل بغير دليل أن يتقى الله، ولا يقدم عقله وهواه على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فمهمة العقل تجاه النقل تصديق المنقول إن كان خبرا، وتنفيذه إن كان أمرا، وهذا شأن من صدق في إسلامه.

ومن ثم فإن الله إذا عرفنا بنفسه في النقل الصحيح، أو عرفنا بشيء مما في عالم الغيب، أو عالم الشهادة، وجب على كل إنسان مسلم عاقل أن يصدق بالمنقول عن الرسول ﷺ تصديقا جازما يبلغ حد اليقين الذي ينافي الشك، ولا يرد الأدلة ويعطلها زاعما أنه من أصحاب المدرسة العقلية التي تحكِّم العقل في كل شيء، حتى في قبول ما ورد من الغيبيات في باب الأسماء والصفات أو رده، فيوجب على الله بعقله أشياء، ويجوز له من الصفات ما يشاء، ويجعل ما نزل من السماء في الخبر عن الصفات، دربا من المحال أو الخيال أو المستحيلات.

قال ابن قيم الجوزية: (العقل الصريح موافق للنقل الصحيح، والشرعة مطابقة للفطرة، يتصادقان ولا يتعارضان، خلافا لمن قال: إذا تعارض العقل والوحي قدمنا العقل على الوحي.

فقبحا لعقل ينقض الوحي حكمه : ويشهد حقا أنه هو كاذب) [1].

كما أن النقل لا يتوقف ثبوته على حكم العقل بصدق النقل، فالنقل أو القرآن وصحيح السنة، أو الوحي ثابت في اللوح المحفوظ قبل وجود العقلاء، سواء صدق به العقلاء أو كذبوه.

---

(١) شفاء العليل لابن القيم ص ٣٠٢، نشر دار الفكر بيروت.

ولذلك قال تعالى: ﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ٨١ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ٨٢ ﴾ الواقعة: ٨٢/٧٥.

وقال: ﴿ حمٓ ١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ٤ ﴾ الزخرف: ١/٤.

ولما كان الأمر كذلك، فإن النقل أو ما جاء في القرآن وصحيح السنة لا يتوقف ثبوته على حكم العقل بصدق الرسل، فإن تكذيب العقلاء لهم يضرهم، ولا يضر الرسل، ويؤثر في مصيرهم، ولا يؤثر في صدق الرسل وبلاغهم عن ربهم.

روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (خَرَجَ عَلينا النبي ﷺ يَوْمًا، فقال: عُرِضَت عَلي الأُمَمُ، فَجَعَل يَمُرُّ النبي معه الرَّجُل، وَالنبِيُّ معه الرَّجُلان، وَالنبِيُّ معه الرَّهْطُ، وَالنبِيُّ ليس معه أَحَدٌ. وَرَأَيْت سَوَادًا كَثيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَرَجَوْت أَن يكون أُمَّتي، فَقِيل: هذا مُوسَى وَقَوْمُهُ. ثمَّ قِيل لي: انظُرْ، فَرَأَيْت سَوَادًا كَثيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَقِيل لي: انظُرْ هَكَذَا وَهَكَذَا، فَرَأَيْت سَوَادًا كَثيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَقِيل: هَؤُلاءِ أُمَّتك، وَمَعَ هَؤُلاءِ سَبْعُون أَلفًا يَدْخُلون الجَنةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، فَتفرَّقَ الناس، ولم يُبَين لهم، فَتذَاكَرَ أَصْحَابُ النبي ﷺ، فَقَالوا: أَمَّا نحْن فَوُلدْنا في الشِّرْكِ، وَلَكِنا آمَنا بِاللهِ

وَرَسُولِهِ، وَلَكِن هَؤُلاءِ هُمْ أَبْناؤُنا، فَبَلَغَ النبي ﷺ، فقال: هُمْ الذِين لا يَتطَيرُون، ولا يَسْترْقُون، ولا يَكْتوُون، وَعَلى رَبِّهمْ يَتوَكَّلون، فَقَامَ عُكَّاشَةُ بن مِحْصَن فقال: أَمِنهُمْ أنا يا رَسُول اللهِ؟ قال: نعم، فَقَامَ آخَرُ فقال: أَمِنهُمْ أنا؟ فقال: سَبَقَكَ بها عُكَاشَةُ) [1].

والشاهد من الحديث أن هذا النبي الذي جاء يوم القيامة، ولم يصدق عاقل واحد، ليس كاذبا في بلاغه عن ربه، أو إعلانه عن النقل الذي نزل عليه في وحيه، ولا يتوقف صدقه على إيمان العقلاء، ومن ثم فإن العقل ليس أصلا في ثبوت النقل، ولا يقدم بحال على النقل، وإنما العقل أصل في التعرف على النقل والعلم به.

كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ النحل:٤٣. فلو آمن صاحب العقل بالنقل، وصدق رسل الله في بلاغهم عن ربهم، فهو المنتفع المستفيد، وإلا فلا يلومن إلا نفسه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (عدم علمنا بالحقائق لا ينفي ثبوتها، فما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ، فإنه ثابت سواء علمنا صدقه أو لم نعلمه، ومن أرسله الله تعالى إلى الناس فهو رسوله، سواء علم الناس

---

(١) رواه البخاري في كتاب الطب، باب من لم يرق ٥/٢١٧٠ (٥٤٢٠)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب ١/١٩٩ (٢٢٠).

أنه رسول أو لم يعلموا، وما أخبر به فهو حق، وإن لم يصدقه الناس، وما أمر به عن الله، فالله أمر به، وإن لم يطعه الناس، فثبوت الرسالة، وثبوت صدق الرسول، وثبوت ما أخبر به، ليس موقوفا على وجودنا أو عقولنا) [١].

- **مثل العامي المستفتى مع الدال على المفتي.**

كما أن شأن العقل مع النقل، أو شأن العقل مع الوحي كشأن العامي المستفتى مع الشيخ العالم المفتي، فإذا عرف العامي المستفتى عالما يفتى الناس في أمور دينهم وعقيدتهم، فسأل الناس عن منزله فدله عليه أحد العامة، ثم اختلف المفتي مع العامي الذي دل المستفتي في حكم من الأحكام، فإن المستفتي يجب عليه قبول قول المفتي، ورد كلام الذي دله على المفتي.

ولوا أن الرجل الذي دله على المفتي قال له: الصواب معي خذ برأي، ولا تأخذ برأي المفتى، لأنني أنا الأصل في علمك بأنه المفتي، فإذا قدمت قوله على قولي، طعنت في الأصل الذي عرفك بأنه المفتي، فيقول له المستفتي: أنت لما شهدت بأنه المفتي، ودلتني عليه، شهدت بوجوب اتباعه دون اتباعك، وتقليده دون تقليدك.

كما أن موافقتي لك في الطريق إلى منزله، لا تستلزم موافقتي لك في كل مسألة، وخطؤك فيما خالفت فيه المفتي، الذي هو أعلم منك،

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ١/٨٧.

لا يستلزم خطأك في علمك بأنه مفت، فيجب عليك تقليد المفتي فيما لا مخالفة فيه لشرع الله، فالمفتي يجوز عليه الخطأ في فتواه، ولو علمنا خطأه، فالمعصوم في خبره عن الله هو رسول الله ﷺ (١).

والسلف الصالح لم يجوزوا أبد أن يكون النقل مطية للعقل بحيث يوجه الإنسان آيات القرآن في غير موضعها، ويحول أدلة السنة في غير مسارها الذي جاءت من أجله، كما فعل أصحاب المدرسة العقلية عندما وضعوا أنسقة وقواعد فكرية في أذهانهم، كفروض يعملون على إثباتها، وغايتهم من البحث في القرآن والسنة أن يجدوا بين الآيات والأحاديث، ما يؤيد عقلهم، ويقوى رأيهم، فيما ذهبوا إليه، ولو بتعسف مستهجن.

وإن وجدوا في الأدلة ما يخالف مذهبهم قاموا بتأويل الآيات والأحاديث تأويلا لا تحتمله النصوص، ولا يقوم على دليل واضح، أو قاموا برد الأحاديث الثابتة بالسند الصحيح بزعم أنها ظنية من رواية الآحاد التي لا تفيد اليقين في أمور الاعتقاد.

وخلاصة الأمر عند التعارض بين العقل كما قرر علماء السلف في عقيدتهم أنهم يقدمون النقل على العقل؛ لأنه ثابت قبل وجود العقل، ولا يتوقف ثبوت النقل على تصديق العقل، فلو كذب جميع العقلاء بنبي من الأنبياء فكلام النبي حق وصدق.

---

(١) السابق ١/٨٠ بتصرف.

• كثير ممن قدم العقل على النقل اعترف بحيرته وضلاله.

كما أن كثيرا ممن قدم العقل على النقل، تأكد من حيرة العقل وضلاله، وتمسك بالنقل الصحيح، واعترف بفضله وحسنه وجماله. قال ابن تيمية: (القول بتقديم الإنسان لمعقوله علي النصوص النبوية قول لا ينضبط، وذلك لأن أهل الكلام والفلسفة الخائضين المتنازعين فيما يسمونه عقليات، كل منهم يقول: إنه يعلم بضرورة العقل، أو بنظره ما يدعي الآخر أن المعلوم بضرورة العقل أو بنظره نقيضه، وهذا من حيث الجملة معلوم، فالمعتزلة ومن اتبعهم من الشيعة يقولون: إن أصلهم المتضمن نفي الصفات والتكذيب بالقدر، الذي يسمونه التوحيد والعدل، معلوم بالأدلة العقلية القطعية، ومخالفوهم من أهل الإثبات يقولون: إن نقيض ذلك معلوم بالأدلة القطعية العقلية) [١].

وأكثر الفضلاء العارفين بالكلام والفلسفة، بل وبالتصوف، الذين لم يحققوا ما جاء به الرسول ﷺ تجدهم فيه حيارى. كما أعترف أبو عبد الله فخر الدين الرازي بضلال العقل وهداية النقل في باب الصفات فقال: (ومن الذي وصل إلي هذا الباب؟ أو ذاق من هذا الشراب؟ ثم أنشد قائلا:

نهاية إقدام العقول عقال : وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا : وحاصل دنيانا أذي ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا : سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

---

(١) درء التعارض ١/١٥٦.

ثم قال الرازي: لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلا، ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥. ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ فاطر:١٠. واقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ الشورى:١١. ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۝١١٠﴾ طه:١١٠. ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ مريم: ٦٥. ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي [(١)].

وكان ابن أبي الحديد البغدادي من فضلاء الشيعة المعتزلة المتفلسفة وله أشعار في هذا الباب كقوله:

فيك يا أغلوطة الفكر .. حار أمري وانقضى عمري
سافرت فيك العقول فما .. ربحت إلا أذى السفر [(٢)].

وهذا إمام الحرمين أبو المعالي الجويني ترك ما كان ينتحله ويقرره، واختار مذهب السلف، وكان يقول: يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو أني عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به. وقال: عند موته: لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم،

---

(١) ذكر فخر الدين الرازي هذا الكلام في كتاب أقسام اللذات الذي صنفه في آخر عمره، انظر طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٩٦/٨، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٢٥٠/٤، وسير أعلام النبلاء للذهبي ٥٠٠/٢١، والصواعق المرسلة ١٦٧/١.

(٢) انظر إيثار الحق على الخلق لابن الوزير اليماني ١٣٩/١ نشر دار الكتب العلمية بيروت، ودرء التعارض ١٦١/١، والصواعق المرسلة ٦٦٨/٢.

ودخلت فيما نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته، فالويل لابن الجويني، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي، أو قال: عقيدة عجائز نيسابور (١).

قال ابن تيمية: (وقد حكي لي أن بعض الأذكياء ـ وكان قد قرأ علي شخص هو إمام بلده، ومن أفضل أهل زمانه في الكلام والفلسفة وهو ابن واصل الحموي ـ أنه قال: أضطجع علي فراشي، وأضع الملحفة علي وجهي، وأقابل بين أدلة هؤلاء وأدله هؤلاء حتى يطلع الفجر، ولم يترجح عندي شيء، ولهذا انتهي أمره إلي كثرة النظر في الهيئة لكونه تبين له فيه من العلم ما لم يتبين له في العلوم الإلهية) (٢).

وكذلك ابن الفارض الصوفي من متأخري الاتحادية الذين زعموا أن العباد في محبتهم لربهم تصل إلى اتحاد الذوات، وهو صاحب القصيدة التائية المعروفة بنظم السلوك. وقد نظم فيها الاتحاد نظما رائق اللفظ، فهو كما عبر ابن تيمية عنها أخبث من لحم خنزير في صينية من ذهب، وما أحسن تسميتها بنظم الشكوك، الله أعلم بها، وبما اشتملت عليه، وقد بالغ أهل العصر في تحسينها، والاعتداد بما فيها من الاتحاد. هذا الصوفي الاتحادي لما حضرته الوفاة أنشد:

---

(١) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٤/٧٣، ومنهاج السنة النبوية ٥/٢٦٩، والصواعق المرسلة ٢/٦٦٤.

(٢) درء تعارض العقل والنقل ١/١٦٥.

إن كان منزلتي في الحب عندكم : ما قد لقيت فقد ضيعت أيامي
أمنية ظفرت نفسي بها زمنا : واليوم أحسبها أضغاث أحلام [(١)].

وكذلك أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، أخبر أنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم، وكان ينشد:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها : وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعا كف حائر : على ذقن أو قارعا سن نادم [(٢)].

وقد أجابه الإمام العلامة محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني وبين له أنه أهمل أهم معهد وهو معهد الرسول الذي لا يحار فيه العقل بل يهتد ولا يندم أبدا فقال رحمه الله:

لعلكَ أهملت الطوافَ بمعهدِ الرسولِ ومن لاقاهُ من كلِّ عالِمِ
فما حارَ من يُهدى بهديِّ محمد : ولست تراهُ قارعاً سِنَّ نادِمِ [(٣)].

- **من أعرض عن القرآن فجهله إما بسيط أو مركب.**

وبسبب إعراض هؤلاء وتقديمهم لعقولهم على هداية ربهم، تجد

---

(١) انظر تاريخ الإسلام للذهبي ٤٦/١١١، ومجموع الفتاوى لابن تيمية ٧٤/٤.
(٢) ذكر الشهرستاني هذه الأبيات في أول كتابه نهاية الإقدام في علم الكلام ص٣، وانظر كذلك الملل والنحل ١٧٣/١ نشر دار المعرفة بيروت، وإيثار الحق على الخلق لابن الوزير اليماني ١٤٠/١، نشر دار الكتب العلمية بيروت، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٢٧٤/٤، ومجموع الفتاوى لابن تيمية ٧٣/٤.
(٣) حاشية درء تعارض العقل والنقل، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم ١٥٩/١.

كثيرا منهم إذا لم يتبين له الهدي في طريقته التي اختارها نكص على عقبيه، واشتغل باتباع شهوات الغي في بطنه وفرجه، أو رياسته وماله، ونحو ذلك، لعدم العلم واليقين الذي يطمئن إليه قلبه، وينشرح له صدره. وفي الحديث المأثور عن أبي بَرْزَةَ ﷺ عَن النبي ﷺ قال: (إن مِمَّا أغشى عَلَيْكُمْ، شَهَوَات الغي في بُطُونكُمْ وَفُرُوجِكُمْ، وَمُضِلاَّت الهَوَى) [(١)].

وهؤلاء المعرضون عن الطريقة النبوية السلفية يجتمع فيهم هذا وهذا، اتباع شهوات الغي، ومضلات الفتن، فيكون فيهم من الضلال والغي بقدر ما خرجوا عن الطريق الذي بعث الله به رسوله ﷺ. ولهذا أمرنا الله ﷻ أن نقول في كل صلاة: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧ ﴾ الفاتحة:٦/٧.

وكان علماء السلف الصالح يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون، فكيف إذا اجتمع في الرجل الضلال والفجور؟ [(٢)].

---

(١) مسند أحمد ٤٢٣/٤ (١٩٨٠٣)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢١٤٣).

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ١٩٢/١، نشر دار الكتب العلمية بيروت، وتهذيب الكمال للمزي ١٦٨/١١عن سفيان الثوري، وانظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٩٧/١.

قال الله تعالى لما أهبط آدم ﷺ: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ طه:١٢٣/ ١٢٧.

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (تكفل الله لمن قرأ القرآن، وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا، ولا يشقي في الآخرة ثم قرأ هذه الآية) [١].

قال ابن تيمية رحمه الله: (والمقصود هنا التنبيه على أنه لو سوغ للناظرين أن يعرضوا عن كتاب الله تعالى ويعارضوه بآرائهم ومعقولاتهم، لم يكن هناك أمر مضبوط يحصل لهم به علم ولا هدى، فإن الذين سلكوا هذه السبيل، كلهم يخبر عن نفسه بما يوجب حيرته وشكه، والمسلمون يشهدون عليه بذلك، فثبت بشهادته، وإقراره علي نفسه، وشهادة المسلمين الذين هم شهداء الله في الأرض، أنه لم يظفر من أعرض عن الكتاب، وعارضه بما يناقضه بيقين يطمئن إليه، ولا معرفة يسكن بها قلبه) [٢].

---

(١) تفسير الطبري ١٨/٣٨٩.

(٢) درء تعارض العقل والنقل ١/١٦٨.

وقال أيضا: (والذين ادعوا في بعض المسائل أن لهم معقولا صريحا يناقض الكتاب، قابلهم آخرون من ذوي المعقولات فقالوا: إن قول هؤلاء معلوم بطلانه بصريح المعقول، فصار ما يدعي معارضته للكتاب من المعقول، ليس فيه ما يجزم بأنه معقول صحيح، إما بشهادة أصحابه عليه، وشهادة الأمة، وإما بظهور تناقضهم ظهورا لا ارتياب فيه، وإما بمعارضة آخرين من أهل هذه المعقولات لهم، بل من تدبر ما يعارضون به الشرع من العقليات، وجد ذلك مما يعلم بالعقل الصريح بطلانه) [1].

ويرد ابن تيمية على من قال: إن كل إنسان له عقل فيعتمد على عقل نفسه، وما وجده معارضا لأقوال الرسول ﷺ من رأيه خالفه وقدم رأيه على نصوص الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم. يرد ابن تيمية على ذلك بأنه معلوم أن هذا أكثر ضلالا واضطرابا، فإذا كان فحول النظر وأساطين الفلسفة الذين بلغوا في الذكاء والنظر إلي الغاية، وهم يكدحون ليلهم ونهارهم في معرفة هذه العقليات، ثم لم يصلوا فيها إلى معقول صريح يناقض الكتاب، بل إما إلى حيرة وارتياب، وإما إلى اختلاف بين الأحزاب، فكيف غير هؤلاء ممن لم يبلغ مبلغهم في الذهن والذكاء، ومعرفة ما سلكوه من العقليات؟ فهذا وأمثاله مما يبين أن من أعرض عن الكتاب وعارضه بما يناقضه، لم يعارضه إلا بما هو جهل بسيط، أو جهل مركب. فالأول كما ورد في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ

(١) السابق ١/١٦٨.

كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ النور:٣٩.

والثاني شأنه كما ورد في قوله: ﴿ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ النور:٤٠.

وأصحاب القرآن والإيمان الذين اتبعوا النور الذي أنزل على الرسول ﷺ في نور علي نور كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ الشورى:٥٢/٥٣.

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ الأعراف:١٥٧.

فأهل الجهل البسيط من هؤلاء هم أهل الشك والحيرة من هؤلاء المعارضين للكتاب المعرضين عنه، وأهل الجهل المركب أرباب الاعتقادات الباطلة التي يزعمون أنها عقليات، وآخرون ممن يعارضهم

يقول: المناقض لتلك الأقوال هو العقليات [١].

• هل السلف أصحاب جمود عقلي؟ ومتى يقدم العقل؟

وهنا سؤال أخير ربما يطرحه بعض المفتونين بالعقل من المتكلمين أو أصحاب المذاهب العلمانية، فربما يقول أحدهم: هل معنى ذلك أن العقيدة السلفية تحارب العقل وتجعله أسيرا للنقل؟ أين التفتح والانفتاح، أليس للعقل شيء مباح؟ لقد تقدم الغرب بالعقل ووصلوا إلى القمر، وهيمنوا علينا ونحن أمة في ذيل البشر؟ فأيهما يحكم على الأشياء بالحسن والقبح؟

يقال لهؤلاء: إن العقول تختلف في نظرتها إلى الأشياء حسنا وقبحا، فما يراه العاقل خيرا، يراه غيره شرا، ولذلك تتعارض المذاقات، وتشتعل الخلافات، فهل الكم بالحسن والقبح على الأشياء مرده إلى النقل فقط دون اعتبار للعقل؟ والجواب أن العقل مجاله النظر في الأسباب فيقال لهؤلاء العقلاء: اصعدوا إلى القمر لتكتشفوا أسرار الكون وعظمة الله، وأرسلوا المركبات والتلسكوبات الفضائية لمراقبة أعداء الله، وخذوا بأسباب القوة وسائر العلوم التي تنصروا بها دين الله.

أما أن يكون القصد من تقديم العقل هو مجاهرة الله بالعصيان، تشبها بالغرب في سلوكياتهم وأخلاقياتهم الماجنة، فهذا ليس بتقدم، فأنت أيها المتحرر الذي ترى في الغرب أسوة، هل تأسيت بهم في العلم المادي، أم

(١) درء التعارض ١/١٦٨

تشبهت بفسقهم وزعم أن ذلك هو التقدم الحضاري؟ فتفعل أفعال الذين يستحقرون ديننا، ويبغضون المؤمنين، وتسير خلفهم شبرا بشر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب دخلته خلفهم، ولبست لباسهم، وتعريت مثلهم، وشربت خمرهم، وألفت سكرهم، وطعمت بيسراك طعامهم، وشاهدت في التلفاز رقصهم، ثم قلدتهم وقلد أولادك مجونهم، ونشرت أفكارهم، وقلدت أفعالهم، وخرجت عن وصفك، وواليتهم على بنى جنسك، ثم سميت ذلك حضارة، وعقلا وتحررا واستنارة.

ثم تزعم بعد ذلك أنك مسلم متحرر تشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ثم تقول: لن أغير تحرري وحياتي وسأبقى على هذا المسلك إلى يوم وفاتي؟ أتكذب على نفسك؟ أين الصدق في عهدك لربك؟

إن شهادة التوحيد ليست مجردَ كلمة خرجت من اللسان لا شروط لها ولا أركان، بل لا بد فيها من العلم واليقين والإخلاص والصدق والمحبة والانقياد والقبول والكفر بما يعبد من دون الله.

ومن ثم فإن الله ﷻ لما أنعم على الإنسان بنعمة العقل، وجعله محل التمييز وأساس الإدراك والفهم، وضع له سبحانه نظاما وحدودا وقيودا لا يتجاوزها، فإن تجاوزها أصبح العقل نقمة لا نعمة.

وعلماء السلف الصالح لما جوزوا إعمال الفكر والعقل جوزوه فيما يؤدى إلى إظهار الدين ونصرة المسلمين، والعمل بمقتضى القرآن والرد

على المخالفين، الذين يقدمون آراءهم على كتاب رب العالمين، وسنة سيد الأنبياء والمرسلين.

- **تقديم العقل على النقل في باب الأمر يؤدي إلى بدع العبادات.**

ومن سأل عن دور العقل في الإسلام؟ وهل عقيدة أهل السنة والجماعة تحارب العقل وتجعله أسيرا للنقل؟ فالجواب هنا يتعلق بفهمنا للأحكام الشرعية التكليفية، فالواجب والمستحب والمحرم والمكروه، هذه الأربعة السيادة فيها للنقل أو للقرآن وصحيح السنة، فالنقل هو الذي يحكم هنا بحسن الأشياء وقبحها، والعقل تابع فيها للنقل، يؤيده ويعضده، ولن يجد عاقل في فطرته ما يخالف الأحكام التكليفية أو يعارض الشريعة الإسلامية.

أما إذا قُدم العقل على النقل في الواجب والمستحب، والمحرم والمكروه من الأحكام، فسوف تظهر البدعة في الإسلام، وسوف تتغير ملامح الشريعة، وتصبح ألعوبة في يد المبتدع.

وأما دور العقل في الحكم على الأشياء بالحسن والقبح، فهذا مقصور على المباح من الأحكام فقط، فالقيادة هنا للعقل الحكيم والنقل يؤيده ويعضده، فقد ثبت عند الإمام مسلم من حديث رافع بن خديج ﵁ أنه قال: (قَدِمَ نبِيُّ اللهِ ﷺ المَدِينة وَهُمْ يَأْبُرُون النخْل، يَقُولون: يُلقِّحُون النخْل، فقَال: مَا تصْنعُون؟ قَالوا: كُنا نصْنعُهُ، قَال: لعَلكُمْ لوْ لمْ تفْعَلوا كَان خَيْرًا فتركُوهُ، فنفَضَت، أَوْ فنقَصَت، قَال: فذَكرُوا ذلكَ لهُ، فقَال:

إِنمَا أَنا بَشَرٌ، إذا أَمَرْتكُمْ بِشَيْءٍ مِن دِينكُمْ فَخُذوا بِهِ، وَإِذا أَمَرْتكُمْ بِشَيْءٍ مِن رأْيٍ، فَإِنمَا أَنا بَشَرٌ)[1].

وثبت عند الإمام مسلم أيضا من حديث أَنس بن مالك ﷺ أَن النبِي ﷺ مَرَّ بِقَوْمٍ يُلقِّحُون فقَال: لوْ لمْ تفعَلوا لصَلحَ، قَال: فَخَرَجَ شِيصًا فَمَرَّ بِهِمْ، فَقَال: مَا لنخْلكُمْ؟ قَالوا: قُلت كَذا وَكَذا، قَال: أَنتمْ أَعْلمُ بِأَمْرِ دُنيَاكُمْ[2].

وهنا ترك الرسول ﷺ الحكم بالحسن والقبح إلى عقولهم واجتهادهم وخبرتهم في الحياة، فالرأي الحكيم مقبول ومقدم في المباحات من أمور الدنيا، دون بقية الأحكام الشرعية، أو التكليفات الدينية.

وأحكام العبودية هي درجات الأمر التكليفي بالفعل أو الترك، من حيث إلزام العبد بها، أو تخيره فيها، وهي الأحكام الشرعية التكليفية التي دل عليها كتاب الله سنة رسوله ﷺ، وتتمثل في خمسة أنواع:

١- الواجب: ويسمي أيضا بالفرض، وهو ما أمر به الحق تبارك وتعالى، أو أمر به رسوله ﷺ، وألزمنا بفعله إلزاما يقتضي العقاب لتاركه، كما أن فاعل الواجب يثاب على امتثاله لأمر الله.

ومثاله أن يصرح الشرع بلفظ كتب الدال على الإلزام كما في قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن

(١) مسلم في الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعا، ٤/١٨٣٥ (٦٢٧٦)

(٢) السابق حديث رقم (٦٢٧٧).

قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ البقرة:١٨٣.

أو يصرح الشارع بلفظ فرض أو وجب، فإنه مصرح بدرجة الحكم وهي الفرضية أو الوجوب كما ورد عند البخاري ومسلم في قوله ﷺ لمعاذ بن جبل ﷺ: (فَإِذا عَرَفُوا اللّهَ فَأَخْبِرْهُمْ أَن اللّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَات فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتهِمْ) (١).

أو كما ثبت من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: (إذا التَقى الخِتانان، فقدْ وَجَبَ الغُسْل) (٢). فالغسل هنا حكمه الوجوب لتصريح الشارع بذلك.

٢- المستحب: ويسمي أيضا بالمندوب أو السنة، وهو ما أمر به الحق تبارك وتعالى، أو أمر به رسوله ﷺ دون إلزام بفعله، بل يثاب فاعله، ولا يعاقب تاركه. ومن أمثلته ما ورد في الأمر بكتابة الدين في قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ ﴾ البقرة: ٢٨٢.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة ٢/٥٢٩ (١٣٨٩)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام ١/٥١ (١٩).

(٢) رواه ابن ماجة في كتاب الطهارة وسننها، باب ما جاء في وجوب الغسل إذا التقى الختانان ١/١٩٩ (٦٠٨)، وأحمد في مسنده ٦/٢٣٩ (٢٦٠٦٧) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٣/٢٥٩(١٢٦١).

ولكن جاءت قرينة أخرى في الآية التي بعدها بينت أن الله لا يريد منا الوجوب، ولكن يريد الندب والاستحباب، فقال تعالى:

﴿ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ البقرة: ٢٨٣ .

وقد أمر رسول الله ﷺ المسلمين بالصلاة قبل المغرب ثلاث مرات على وجه الندب والاستحباب كما ورد في حديث عَبْد اللهِ الْمُزَنِيّ ﷺ فقَال النبي ﷺ: (صَلوا قَبْل صَلاةِ المَغرِبِ، قَال فِي الثالثةِ: لَمن شَاءَ، كَرَاهِيَةَ أَن يَتخِذهَا الناسُ سُنةً) [(١)] .

٣- المباح: وهو ما خيرنا فيه الشارع بين الفعل أو الترك ففعله كتركه، لا يثاب المرء على فعله، ولا يعاقب على تركه، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ الجمعة:١٠. فالأمر بالانتشار خارج المسجد للتخيير والإباحة، لأنه ورد بعد حظر ومنع، فقال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ الجمعة:٩.

٤- المكروه: وهو عكس المستحب، وتعريفه: هو ما نهي عنه

---

(١) البخاري في أبواب التطوع، باب الصلاة قبل المغرب ١/٣٩٦ (١١٢٨).

الشارع لا علي وجه الحتم والإلزام، أو هو ما يثاب تاركه، ولا يعاقب فاعله، كَتَرْكِ صَلاةِ الضُّحَى مَثَلا، لا لنهْيٍ وَرَدَ عَنهُ، وَلَكِن لكَثْرَةِ فَضْلهِ وَثوَابِهِ.

٥- المحرم: وهو ضد الواجب، وهو ما نهي عنه الشارع علي وجه الحتم والإلزام، والمحرم يثاب تاركه امتثالا، ويعرف الحرام أيضا إذا ورد التصريح بلفظ التحريم كقوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ المائدة:٣. وقوله: ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ النور:٣. فهذا التحريم تكليف من الله تعالى لعباده بالمنع. ويعرف الحرام أيضا بأن تكون الصيغة التي تدل على طلب الترك مقترنة بوعيد وعقاب، كالمنع من الجنة، أو الدخول في النار، أو اللعن، أو الغضب، أو الذم، أو القبح، أو ما شابه ذلك.

قال ابن تيمية رحمه الله: (من تعبد بعبادة ليست واجبة ولا مستحبة، وهو يعتقدها واجبة أو مستحبة، فهو ضال مبتدع، بدعة سيئة لا بدعة حسنة باتفاق أئمة الدين، فإن الله لا يعبد إلا بما هو واجب أو مستحب) [١].

ومثال البدع المنتشرة بسبب التعبد بعبادة ليست واجبة ولا مستحبة قراءة الفاتحة عند زيارة القبر بدلا من التأسي بالسنة في الدعاء النبوي الذي ورد في صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها، قال ﷺ:

---

(١) مجموع الفتاوى ١/١٦٠.

(السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِين، وَأَتاكُمْ مَا توعَدُون، غَدًا مُؤَجَّلون، وَإِنا إِن شَاءَ اللهُ بِكُمْ لاَحِقُون، اللهُمَّ اغْفِرْ لأَهْل بَقِيعِ الغَرْقَدِ) (١).

قال الإمام مالك رحمه الله: (مَن ابْتدَعَ في الإِسلام بدعة يَراها حَسَنَة؛ فَقَدْ زَعَمَ أَن مُحمّدا ﷺ خان الرّسالةَ؛ لأَن اللهَ يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ المائدة:٣، فما لم يَكُن يَوْمَئذ دينا، فَلا يكُون اليَوْمَ دينا) (٢).

- **بدع الاعتقادات سببها تقديم العقل في باب الأخبار.**

كبدعة المعتزلة في القول بخلق القرآن التي فرضها الخليفة المأمون بن هارون، وقتل فيها المئات من المسلمين. فلما أصر المعتزلة على نفي صفة الكلام عن الله بعقولهم الفاسدة، تبادر إلى الذهن سؤال هام وهو: إذا كان الله لا يتكلم، فهذا القرآن كلام من؟ ومن الذي تكلم به؟ فقالوا: تكلم به محمد ﷺ، ولما كان محمد ﷺ مخلوقا فكلامه مخلوق، وقد خلق الله محمدا ﷺ وخلق كلامه كما خلق سائر الأشياء. أما هو سبحانه فلا يتكلم، ولا يكلم أحدا من خلقه، وقد تخبط كثير منهم، فمرة ينسبونه إلى جبريل! ومرة ينسبونه إلى محمد ﷺ! ومرة يزعمون أن الله كان ولم يكن عرب ولا كلام عربي، فالله خلق القرآن كما خلق العرب! وغير ذلك من ألوان التخبط في الأدلة والتضارب في القول.

وقد أبطل علماء أهل السنة والجماعة بدعة الاعتزال العقلية، ووضعوا

---

(١) رواه مسلم في الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور ٢/٦٦٩ (٩٧٤).

(٢) انظر الاعتصام للشاطبي ١/٤٩، نشر المكتبة التجارية الكبرى، مصر.

القواعد التي يردون بها على من قدم عقله في باب الصفات الخبرية وسائر الأمور الغيبية، وكان من أبرزهم الشيخ أبو عبد الرحمن بن محمد بن إسحاق الأزدي، حيث أدخل على الخليفة الواثق بن المعتصم أمير المؤمنين وهو مقيد بالسلاسل، وكان شيخا شاميا أمر قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد باعتقاله؛ لأنه كان يقول بقول الإمام أحمد بن حنبل في إثبات صفة الكلام لله تعالى، فسلم غير هائب ودعا فأوجز.

قال له الواثق: يا شيخ، ناظر ابن أبي دؤاد على ما يناظرك عليه. فقال الشيخ الأزدي: يا أمير المؤمنين هذا لا يقوى على المناظرة. فغضب الواثق لإهانته قاضي القضاة، وقال: أبو عبد الله بن أبي دؤاد يضيق، أو يقل ويضعف عن مناظرتك أنت؟! فقال: هوّن عليك يا أمير المؤمنين، أتأذن لي في كلامه؟ فقال الواثق: قد أذنت لك.

ثم التفت الشيخ الأزدي إلى أحمد بن أبي دؤاد وقال له: خبرني يا بن أبي دؤاد، أمقالتك تلك ـ يقصد بدعته في القول بخلق القرآن ـ واجبة في أصول الدين، فلا يكون كاملا إلا بما قلت؟ قال ابن أبي دؤاد: نعم. قال الشيخ أبو عبد الرحمن: هل ستر الرسول ﷺ شيئا مما أمر الله به المسلمين في أمر دينهم؟ قال ابن أبي دؤاد: لا. قال الشيخ: أفدعا إلى مقالتك هذه؟ فسكت بن أبي دؤاد! قال الشيخ الأزدي للخليفة الواثق: يا أمير المؤمنين هذه واحدة.

ثم قال: يا ابن أبي دؤاد أخبرني حين أنزل الله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ

دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ المائدة:٣، فقلت أنت الدين لا يكون تاما إلا بمقالتك في خلق القرآن، فهل كان الله تعالى الصادق في إكمال دينه أو أنت الصادق في نقصانه؟ فسكت بن أبي دؤاد. قال الشيخ أبو عبد الرحمن لأمير المؤمنين الواثق: يا أمير المؤمنين ثنتان. ثم قال الشيخ أبو عبد الرحمن الأزدي: يا أحمد مقالتك هذه علمها رسول الله أم جهلها؟ قال: علمها. قال الشيخ: أفدعا الناس إليها؟ فسكت بن أبي دؤاد. قال: يا أمير المؤمنين ثلاث.

ثم قال: خبرني يا أحمد، لما علم رسول الله ﷺ مقالتك التي دعوت الناس إليها، هل وسعه أن أمسك عنها أم لا؟ قال أحمد: علمها وسكت عنها. قال الشيخ الأزدي: وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رحمة الله عليهم؟ قال: نعم.

قال أبو عبد الرحمن: أفوسع رسول الله ﷺ أن علمها، وأمسك عنها كما زعمت، ولم يطالب بها أمته؟ قال: نعم. فأعرض الشيخ عنه وأقبل على الخليفة يقول: يا أمير المؤمنين إن لم يسعه ما وسع رسول الله ﷺ السكوت عنه، فلا وسّع الله على من لم يسعه ما وسع رسول الله ﷺ أن يسكت عنه. قال الواثق: نعم، لا وسّع الله على من لم يسعه ما وسع رسول الله ﷺ أن يسكت عنه، فبكى الواثق وأمر بحل قيوده، فجاذب الشيخ أبو عبد الرحمن الحداد على القيود يود لو يحتفظ بها.

قال الواثق: ولم؟ قال: نويت أن تجعل بيني وبين كفني لأخاصم بها

هذا الظالم يوم القيامة، وبكى الشيخ أبو عبد الرحمن، وبكى الواثق، وبكى الحاضرون. قال الواثق: اجعلني في حل. قال: والله لقد جعلتك في حل وسعة من أول يوم إكراما لرسول الله ﷺ إذ كنت رجلا من أهله. قال الواثق: تقيم معنا. قال الشيخ أبو عبد الرحمن الأزدي: ردك إياي إلى الموضع الذي أخذني منه هذا الظالم أجدى عليك وأنفع لي، ثم قام وخرج [(١)].

وبعد هذه المناظرة التي تعد قاعدة في هدم البدعة، رفعت المحنة عن العباد، فلما تولى المتوكل الخلافة سنة ٢٣٢هـ انتصر لأهل السنة وانتقم من المبتدعة، وكان من أفضل خلفاء بني العباس، لأنه أحسن الصنيع لأهل السنة بخلاف أخيه الواثق وأبيه المعتصم وعمه المأمون؛ فإنهم أساءوا إلى أهل السنة، وقربوا أهل البدعة.

- **ذم السلف الصالح للمبتدعة وعلماء الكلام.**

روى الدارمي عن عمر بن يحيى الهمداني قال: حدثني أبي قال: كنا نجلس على باب ابن مسعود ﷺ قبل الصلاة، فإذا خرج مشينا معه إلى المسجد، فجاءنا أبو موسى الأشعري ﷺ فقال: أخرج عليكم أبو عبد الرحمن بعد؟ يقصد ابن مسعود ﷺ، قلنا: لا، فجلس معنا حتى خرج، فلما خرج قمنا إليه جميعا، فقال: يا أبا عبد الرحمن، إني رأيت في المسجد

---

(١) الشريعة للآجري ١/٥٤٠، نشر دار الوطن الرياض، وتاريخ بغداد ٧٦/١٠، وتاريخ الإسلام للذهبي ٤٤/١٧.

آنفا أمرا أنكرته، ولم أر والحمد لله إلا خيرا، قال: فما هو؟ قال: إن عشت فستراه، قال: رأيت في المسجد قوما حُلُقَا جُلُوسا ينتظرون الصلاة، في كل حلقة رجل، وفي أيديهم حصى فيقول: كبروا مائة، فيكبرون مائة، فيقول: هللوا مائة، فيهللون مائة، فيقول: سبحوا مائة، فيسبحون مائة. قال ابن مسعود لأبي موسى ﷺ: فماذا قلت لهم؟ قال: ما قلت لهم شيئا، انتظرك رأيك، أو انتظر أمرك، فقال: أفلا أمرتهم أن يعدوا سيآتهم؛ فأنا أضمن لهم أن لا يضيع من حسناتهم شيء.

ثم مضى ومضينا معه حتى أتى حلقة فوقف عليهم فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون؟ قالوا: يا أبا عبد الرحمن حصى نعد به التكبير والتهليل والتسبيح والتحميد، قال: فعدوا سيئاتكم؛ فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء. ويحكم يا أمة محمد! ما أسرع هلكَتكُم، هؤلاء أصحابه متوافرون، وهذه ثيابه لم تبل، وآنيته لم تكسر، والذي نفسي بيده، إنكم لعلى ملة هي أهدى من ملة محمد، أو مفتتحوا باب ضلالة، قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير، فقال: وكم من مريد للخير لن يصيبه. إن رسول الله ﷺ حدثنا أن قوما يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، وأيم الله، لا أدري لعل أكثرهم منكم، ثم تولى عنهم. قال عمرو بن سلمة: رأينا عامة أولئك يطاعنونا يوم النهر مع الخوارج [1].

---

(١) صحيح، انظر السلسلة الصحيحة ١١/٥ (٢٠٠٥)، وحديث: (إن قوما يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية). أخرجه الدارمي في المقدمة، باب في كراهية أخذ الرأي ٧٩/١ (٢٠٤).

وروى أبو داود وصححه الشيخ الألباني عن معاذ بن جبل ﷺ أنه قال: (إن من ورائكم فتن يكثر فيها المال، ويفتح فيها القرآن حتى يأخذه المؤمن والمنافق والرجل والمرأة والصغير والكبير والعبد والحر، فيوشك أن يقول قائل: ما للناس لا يتبعوني وقد قرأت القرآن، ما هم بمتبعي حتى ابتدع لهم غيره، فإياكم وما ابتدع، فإنما ابتدع ضلالة، واحذروا زيغة الحكيم؛ فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلال على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق) [١].

جاء رجل إلى الإمام مالك بن أنس رحمه الله فقال: يا أبا عبد الله من أين أحرم؟ قال: من ذي الحليفة من حيث أحرم رسول الله ﷺ فقال: إني أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر؟ قال: لا تفعل، فإني أخشى عليك الفتنة، فقال: وأي فتنة في هذه؟ إنما هي أميال أريدها، قال: وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله ﷺ؟ فإن الله تعالى يقول: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾النور:٦٣ [٢].

وأي فتنة أعظم من أن يرى المبتدع أن اختياره لنفسه خير من اختيار

---

(١) رواه أبو داود في كتاب السنة، باب لزوم السنة ٦١٢/٢ (٤٦١١)، وقال الشيخ الألباني: صحيح الإسناد موقوف.

(٢) انظر كتاب حجة النبي ﷺ كما رواها عنه جابر ﷺ للشيخ الألباني ص١١٠.

الله ورسوله ﷺ له، وأي فتنة أكبر من أنه خص نفسه بفضل لم يختص به رسول الله ﷺ.

واعلم أنه حيث ما ورد الأمر بلزوم الجماعة، فالمراد به لزوم الحق واتباعه، وإن كان المتمسك بالحق قليلا، أو كان المخالف له كثيرا؛ لأن الحق هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وما كانت عليه الجماعة الأولى وهم النبي ﷺ وأصحابه ﷺ[1].

قال عمر بن ميمون الأودي: صحبت معاذ بن جبل رضي الله عنه باليمن فما فارقته حتى واريته التراب بالشام، ثم صحبت بعده أفقه الناس عبد الله بن مسعود، فسمعته يقول عليكم بالجماعة؛ فإن يد الله على الجماعة. ثم سمعته يوما من الأيام وهو يقول: سيلي عليكم ولاة يؤخرون الصلاة عن مواقيتها، فصلوا الصلاة لميقاتها فهي الفريضة، وصل معهم فإنها لك نافلة. قال عمر بن ميمون لعبد الله بن مسعود: يا أصحاب محمد ما أدري ما تحدثون؟ قال عبد الله: وما ذاك؟ قلت: تأمرني بالجماعة وتحضني عليها، ثم تقول لي صل الصلاة وحدك وهي الفريضة، وصل مع الجماعة وهي نافلة، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: يا عمرو بن ميمون قد كنت أظنك من أفقه أهل هذه القرية، تدري ما الجماعة؟ قلت: لا، قال: إن جمهور الناس فارقوا الجماعة، وإن الجماعة ما وافق الحق وأن كنت وحدك [2].

---

(١) الباعث على إنكار البدع والحوادث لأبي شامة ص٢٠ بتصرف.

(٢) شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة ١/١٠٨.

وفي رواية قال عمرو بن ميمون ﷺ: (فقال ابن مسعود ﷺ ـ وضرب على فخذي: ويحك إن جمهور الناس فارقوا الجماعة، وإن الجماعة ما وافق طاعة الله تعالى) [(١)].

وقال نعيم ابن حماد: (قال عبد الله بن مسعود ﷺ: إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد، وأن كنت وحدك، فإنك أنت الجماعة) [(٢)].

قال أبو عثمان إِسماعيل الصابوني: (وعَلامات أَهل البدَعِ عَلى أَهلها بادية ظاهرة، وأَظهرُ آياتهم وعَلاماتهم شدَةُ مُعاداتهم لحمَلَة أَخبار النبِيِّ ﷺ واحتقارهم لهُم، وتسميتهم حَشوية، وجَهلة، وظاهرية مُشبهة؛ اعتقادا منهُم في أخبار رسول الله ﷺ أَنها بمعزل عن العلم، وأَن العلم ما يُلقيهِ الشيطان إِليهِم من نتائجِ عُقولهم الفاسدة، ووساوس صُدورهم المُظلمَة) [(٣)].

قال الإمام أَحمد بن سنان القطان رحمه الله تعالى: (ليْسَ في الدنيا مُبْتدع؛ إِلا وهو يُبْغضُ أَهل الحَديث، فإِذا ابْتدَعَ الرجُل، نزِعَت حَلاوَةُ الحَديث من قَلبِه) [(٤)].

---

(١) السابق ١/١٠٩.

(٢) الباعث على إنكار البدع ص٢٢.

(٣) بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية ١/١٠٦.

(٤) أخرجه الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث ١/٧٣، نشر دار إحياء السنة النبوية، أنقرة. وانظر طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٢/٦، نشر دار هجر.

وقد بين الإِمام الشافعي حكم أَهل البدع والأَهواء وعلماء الكلام فقال: (حُكْمي في أَصْحابِ الكَلامِ أَن يُضربَوا بالجريد، ويُحْمَلوا عَلى الإِبل، ويُطاف بهم في العشائرِ والقَبائل؛ ويقال: هذا جَزاءُ مَن ترَك الكتابَ والسنة، وأَخَذ في الكَلام) [(١)].

وقال الفضيل بن عياض: (صاحبُ بدعَة لا تأمَنه عَلى دينكَ، ولاَ تشَاورهُ في أَمْرِكَ، ولاَ تجلس إِليه، ومَن جَلسَ إِلى صاحِبِ بدعة أَوْرثهُ اللهُ العَمَى) [(٢)]. وقال سفيان الثوري رحمه الله: (مَن أصغى سَمْعَهُ إِلى صَاحب بِدْعَة وهُو يَعْلمُ أَنهُ صاحِبُ بِدْعَةٍ؛ نزِعَت مِنهُ العِصْمَةُ، ووُكِل إِلى نفْسِه) [(٣)].

وقال إِمام أَهل السُّنة أَحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: (إِن أَهل البدَعِ والأَهْواءِ؛ لاَ يَنبَغي أَن يُسْتعان بِهِم في شَيء مِن أمورِ المُسْلميَن؛ فإِن في ذلكَ أَعْظَم الضرر على الدين) [(٤)].

وقال الإِمام عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله تعالى: (إِنه ليْسَ في أَصْحاب الأَهْواءِ شَر مِن أَصْحابِ جَهم؛ يُريدون عَلى أَن يَقُولوا: ليسَ في السَماءِ شَيء: أَرى وَاللهِ أَلا يُناكَحُوا، وَلاَ يُوَارثوا) [(٥)].

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ١٣٨/١ (٢٦٤) نشر دار طيبة.
(٢) السابق ١٤٠/١ (٢٧٥).
(٣) حلية الأولياء ٢٦/٧، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة ١٣٦/١ (٢٥٢).
(٤) الآداب الشرعية لابن مفلح ٢٧٥/١، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٢٩٧/١١).
(٥) السنة لعبد الله بن أحمد ١٥٧/١ (١٤٧)، ومجموع الفتاوى ٥٣/٥.

وعَن أَبِي يُوسُفَ رَحِمَهُ اللهُ تعَالى أَنهُ قَال لِبشْرٍ المِريسِيِّ: (العِلمُ بِالكَلامِ هُوَ الجَهْل، وَالجَهْل بِالكَلامِ هُوَ العِلمُ، وإِذا صَارَ الرَّجُل رَأْسًا فِي الكَلامِ قِيل: زِندِيقٌ، أَوْ رُمِيَ بِالزَّندَقَةِ) (١).

وَعَنهُ أَيْضا أَنهُ قَال: (مَن طَلبَ العِلمَ بِالكَلامِ تزَندَقَ، وَمَن طَلبَ المَال بِالكِيمْيَاءِ أَفْلسَ، وَمَن طَلبَ غَرِيبَ الحَدِيث كَذبَ) (٢).

• المقصود بمصطلح السلف والخلف:

السَّلف لغة هو الماضي، كما في قول الله ﷻ: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ البقرة:٢٧٥. وقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ﴾ النساء:٢٢.

قال ابن منظور: (سلف يسلف سلفا، مثال طلب يطلب طلبا، أي مضى. والقوم السلاف المتقدمون. سلف الرجل آباؤه المتقدمون، والجمع أسلاف .. ويجيء السلف على معان: القرض، والسلم، وكل عمل قدمه العبد) (٣).

ولما كان كل ماض سلف فقد شاع إطلاق مصطلح السلف على

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٧/٦١، وانظر الأنساب للسمعاني ٥/٢٦٧، والصواعق المرسلة لابن القيم ٤/١٤٢١.

(٢) أخبار القضاة لأبي بكر محمد بن حيان البغدادي ٣/٢٥٨، وانظر بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية ١/١٥١.

(٣) لسان العرب لابن منظور الأفريقي ٩/١٥٨، والتوقيف ١/٤١٢.

الجيل المؤسس الذي أقام الدين، وطبق منهج الإسلام، وهو جيل الصحابة ﷺ الذي تلقى عن رسول الله ﷺ البيان النبوي للبلاغ القرآني، ثم انضم إليهم من اهتدى بهديهم، واقتدى بسنة نبيهم، من التابعين وتابع التابعين، وأئمة المذاهب الفقهية الكبرى.

ويمكن تحديد من يدخل تحت اصطلاح السلف بصورة أكثر دقة من خلال أمرين أساسيين، أو عاملين مجتمعين، عامل زمني وآخر منهجي:

أولا: العامل الزمني.

ويتناول كل من أدرك عصر خير القرون. ويشير إلى ذلك ما رواه البخاري من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: (خَيْرُ الناس قَرْني، ثمَّ الذين يَلونهُمْ، ثمَّ الذين يَلونهُمْ ثمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينهُ، وَيَمِينهُ شَهَادَتهُ) [١].

والقرن أهل زمان واحد متقارب، اشتركوا في أمر من الأمور المقصودة، ويقال: إن ذلك مخصوص بما إذا اجتمعوا في زمن نبي أو رئيس يجمعهم على ملة واحدة، أو مذهب أو عمل.

ويطلق القرن أيضا على مدة من الزمان. ذكر الجوهري أن مدة القرن بين الثلاثين والثمانين. وذكر ابن الأعرابي أنه من عشر إلى سبعين، ثم قال: (هذا هو القدر المتوسط من أعمار أهل كل زمن،

---

(١) البخاري في الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا ٥/٢٣٦٢ (٦٠٦٥) .

وهذا أعدل الأقوال، وهو مأخوذ من الأقران) [١].

قال ابن حجر العسقلاني: (وقد ظهر أن الذي بين البعثة وأخر من مات من الصحابة مائة سنة وعشرون سنة، أو دونها، أو فوقها بقليل، على الاختلاف في وفاة أبي الطفيل، وإن اعتبر ذلك بعد وفاته ﷺ، فيكون مائة سنة، أو تسعين، أو سبعا وتسعين، وأما قرن التابعين فإن اعتبر من سنة مائة كان نحو سبعين أو ثمانين، وأما الذين بعدهم فإن اعتبر منها، كان نحوا من خمسين، فظهر بذلك أن مدة القرن تختلف باختلاف أعمار أهل كل زمان، والله أعلم) [٢].

وإذا نظرنا إلى المدة الزمنية التي تحدد العامل الزمني في إطلاق مصطلح السلف على من أدركها، نجدها تنتهي بتغيير العقيدة المعتمدة على مستوى الخلافة الإسلامية من الطريقة السلفية إلى الطريقة البدعية الاعتزالية، وذلك إلى حدود العشرين ومائتين.

قال ابن حجر رحمه الله: (واتفقوا أن آخر من كان من أتباع التابعين ممن يقبل قوله، من عاش إلى حدود العشرين ومائتين. وفي هذا الوقت ظهرت البدع ظهورا فاشيا، وأطلقت المعتزلة ألسنتها، ورفعت الفلاسفة رؤوسها، وامتحن أهل العلم ليقولوا بخلق القرآن، وتغيرت الأحوال تغيرا

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني الشافعي تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، محب الدين الخطيب، بيروت، دار المعرفة ٧/٥ (١٣٧٩).
(٢) السابق ٧/٥.

شديدا، ولم يزل الأمر في نقص إلى الآن، وظهر قوله ﷺ: ثم يفشو الكذب، ظهورا بينا حتى يشمل الأقوال والأفعال والمعتقدات، والله المستعان) [(١)].

ومن ثم فإن العامل الزمني يقصد به تلك الفترة الزمنية، أو فترة العصر الذهبي التي تمثل نقاء الفهم والتطبيق لكل ما ورد في الكتاب والسنة، وذلك قبل ظهور المذاهب البدعية التي وفدت بعد الفتوحات الإسلامية، وأدخلت في الأمة مختلف الفلسفات العقلية.

وعليه فإن عصر السلف الصالح يمتد من زمن النبوة إلى زمن المحنة، عندما تولى أهل الاعتزال إدارة الخلافة الإسلامية في عهد الخليفة المأمون بن هارون، من خلفاء بنى العباس، حيث فرض على الناس مذهبهم بقوة الدولة، وامتحن علماء السلف الصالح في قضية خلق القرآن وتعطيل الصفات الإلهية.

- **ثانيا: العامل المنهجي.**

وهو أساس في قيام مصطلح السلف، فمن تحقق فيه العامل الزمني السابق، وأدرك عصر السلف الصالح، لا يشمله اصطلاح السلف إلا بتحقيق العامل المنهجي، فطريقة السلف طريقة الإيمان والتسليم، يؤمنون بكل خبر ورد في القرآن، ويصدقون به تصديقا جازما يبلغ حد اليقين، وينفذون كل أمر شرعي تنفيذا كاملا، ويعلمون أن ما جاء في

---

(١) السابق ٧/٦.

القرآن وصحيح السنة، لا يمكن أن يعارض صريح العقل والحكمة، فالله ﷻ هو الذي خلق العقل، وهو الذي أرسل إليه النقل، ومن المحال أن يرسل إليه ما يفسده، وقد تقدم الحديث عن ذلك.

ومن ثم فإن العامل المنهجي في تحديد مصطلح السلف وهو اعتقاد يكون فيه المسلم موافقا لطريقة السلف والأئمة ومنهم وفق ميلادهم:

١- الإمام أبو حنيفة النعمان (٨٠–١٥٠هـ).

٢- الإمام مالك (٩٣–١٧٩هـ)..

٣- الإمام سفيان الثوري (٩٧–١٦١هـ).

٤- الإمام سفيان بن عيينة (١٠٧–١٩٨ هـ).

٥- الإمام عبد الله بن المبارك (١١٨–١٨١هـ).

٦- الإمام الشافعي (١٥٠–٢٠٤هـ).

٧- الإمام أبو عُبيد القاسم بن سلاّم (١٥٠–٢٢٤هـ).

٨- الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤–٢٤١هـ).

٩- الإمام البخاري (١٩٤–٢٥٦هـ).

١٠- الإمام الدارمي (٢٠٠–٢٨٠ هـ).

١١- الإمام أبو داود (٢٠٢–٢٧٥هـ).

١٢- الإمام مسلم (٢٠٤–٢٦١هـ).

١٣- الإمام الترمذي (٢٠٩–٢٧٩هـ).

١٤- الإمام ابن ماجة (٢٠٩–٢٧٣هـ).

١٥- الإمام النسائي (٢١٥–٣٠٣ هـ).

هؤلاء وغيرهم من علماء السلف كانت طريقتهم هي الطريقة التي دل القرآن عليها وأرشد إليها، وهي أكمل الطرق وأصحها، يتوافق فيها العقل مع النقل، ولا يتخذون النقل مطية للعقل، بل يرون الحق فيما نزل من عند الله ﷻ، ويتهمون أنفسهم وعقولهم إذا عارضت كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وصفهم وحالهم كما ورد في قول الله تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦ ﴾ سبأ:٦.

ومن ثم فإن كل من تحقق فيه هذا العاملان، فهو سلفي بالمعنى الاصطلاحي، وكل من أعقبهم، وجاء بعدهم، وسار على دربهم، واعتقد صحة نهجهم، فهو من خير خلف لخير سلف، وإن لم يدخل تحت السلف اصطلاحا. ومن هؤلاء على سبيل المثال وعلى حسب ترتيب ولادتهم:

١- أبو بكر بن خزيْمة (٢٢٣-٣١١هـ).
٢- أبو جعفر الطحاوي (٢٣٨-٣٢١هـ).
٣- أبو الحسن الأشعري (٢٦٠-٣٢٤هـ).
٤- أبو عبد الله بن منده (٣١٠-٣٩٥هـ).
٥- شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمِية (٦٦١-٧٢٨هـ)..
٦- شمس الدين الذهبي (٦٧٣-٧٤٨هـ).
٧- شمس الدين بن القيم (٦٩١ -٧٥١هـ).
٨- الحافظ ابن كثير القرشي (٧٠٠-٧٧٤هـ).

- **مصطلح الخلف.**

الخلف لغة القرن بعد القرن، يقال: هؤلاء خلف سوء لناس لاحقين بناس أكثر منهم، والخَلْفُ أيضا ساكن اللام ومفتوحها، ما جاء من بعد يقال: هو خلف سوء من أبيه، وخلف صدق من أبيه، إذا قام مقامه [(١)].

قال ابن المطرز: (خلف فلان فلانا جاء خلفه، ومنها خلفة الشجر، وهي ثمر يخرج بعد الثمر الكثير، وخلفة النبات، ما ينبت في الصيف بعدما ييس العشب، وكذلك ما زرع من الحبوب بعد إدراك الأولى يسمى خلفة، وخلفته خلافة، كنت خليفته) [(٢)].

أما الخلف في الاصطلاح فيمكن تحديده أيضا من خلال أمرين أساسيين، أو عاملين مجتمعين، عامل زمني، وآخر منهجي:

- **أولا: العامل الزمني.**

ويتناول كل من أعقب عصر السلف، ولم يدرك عصر خير القرون، وبدايته الرسمية منذ سيطرة المعتزلة على الخلافة الإسلامية في عصر المأمون بن هارون، وإن كان ظهور المنهج الكلامي أسبق من ذلك، إلا أنه لم يكن على مستوى الخلافة الإسلامية.

---

(١) مختار الصحاح ٧٨/١.

(٢) المغرب في ترتيب المعرب لابن المطرز ٢٨٦/١.

- **ثانيا: العامل المنهجي.**

العامل المنهجي في تحديد مصطلح الخلف، هو اتباع أصحابه للمنهج الكلامي والمنطق اليوناني، واعتباره أصلا يسيرون على نهجه، وميزانا لقياس الأمور العقائدية، وما عارض ذلك من نصوص الوحي جعلوها أدلة ظنية لا تفيد اليقين، أو مجازات واستعارات خيالية لا حقيقة لها، وأن العقل عارضها فيجب تقديمه عليها، وأنها أخبار آحاد لا يجوز أن يحتج بها على أصولهم.

هذا الاتجاه هو ما عرف بمذهب الخلف قديما، ويصدق عليه من سار على دربهم حديثا. قال ابن حجر العسقلاني: (وقد توسع من تأخر عن القرون الثلاثة الفاضلة في غالب الأمور التي أنكرها أئمة التابعين وأتباعهم، ولم يقتنعوا بذلك حتى مزجوا مسائل الديانة بكلام اليونان، وجعلوا كلام الفلاسفة أصلا يردون إليه ما خالفه من الآثار بالتأويل ولو كان مستكرها، ثم لم يكتفوا بذلك حتى زعموا أن الذي رتبوه هو أشرف العلوم، وأولاها بالتحصيل، وأن من لم يستعمل ما اصطلحوا عليه فهو عامي جاهل، فالسعيد من تمسك بما كان عليه السلف، واجتنب ما أحدثه الخلف) [١].

وقال أبو القاسم اللالكائي: (فلم تزل الكلمة مجتمعة، والجماعة متوافرة على عهد الصحابة الأول، ومن بعدهم من السلف الصالحين،

---

(١) فتح الباري ١٣/٢٥٣.

حتى نبغت نابغة في أول إمارة المروانية، تنازع في القدر وتتكلم فيه، حتى سئل عبد الله بن عمر، فروى له عن رسول الله ﷺ الخبر بإثبات القدر والإيمان به، وحذر من خلافه، وأن ابن عمر ممن تكلم بهذا أو اعتقده بريء منه وهم براء منه، وكذلك عرض على ابن عباس وأبي سعيد الخدري وغيرهما، فقالا له مثل مقالته) [1].

• طريقة الخلف ليست أسلم من طريقة السلف.

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن الواجب على جميع الخلق في باب العقيدة والغيبيات هو الالتزام بقول الله تعالى ورسوله ﷺ وما ذكره السابقون الأولون وما قاله أئمة الهدى، فإن الله تعالى بعث محمدا ﷺ بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وشهد له بأنه بعثه داعيا إليه بإذنه وسراجا منيرا، فمن المحال في العقل والدين أن يكون السراج المنير الذي أخبر الله تعالى بأنه أكمل له ولأمته دينهم، أن يكون قد ترك باب الإيمان بالله والعلم به ملتبسا مشتبها، ولم يميز ما يجب لله من الأسماء الحسنى والصفات العلى وما يجوز عليه أو يمتنع، فإن معرفة هذا أصل الدين وأساس الهداية وأفضل ما اكتسبته القلوب وحصلته النفوس وأدركته العقول.

ومن المحال مع تعليمه عليه السلام لأمته كل شيء، لهم فيه منفعة وإن دقت، أن يترك تعليمهم ما يقولون بألسنتهم وقلوبهم في ربهم

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/١٦.

ومعبودهم الذي معرفته غاية المعارف، وعبادته أشف المقاصد، والوصول إليه غاية المطالب، فكيف يتوهم من في قلبه أدنى مسكة من إيمان وحكمة أن لا يكون بيان هذا الباب قد وقع من الرسول على غاية التمام؟!

ثم إذا كان قد وقع ذلك منه، فمن المحال أن خير أمته وأفضل القرون قصروا في هذا الباب زائدين فيه أو ناقصين عنه. ثم من المحال أيضا أن تكون خير القرون الفاضلة، القرن الذي بعث فيهم رسول الله ﷺ ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، كانوا غير عالمين ولا قائلين في هذا الباب بالحق المبين. فهذا لا يعتقده مسلم ولا عاقل عرف حال القوم. ولا أن يعتقد أن الخلف أعلم من السلف، أو أن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم، ظنا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه ذلك، وأن طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات، وغرائب اللغات، فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقالة [(١)].

وقد بين ابن القيم رحمه الله أن الله سبحانه قد أخبر أنه أكمل له ولأمته به دينهم، وأتم عليهم به نعمته، ومحال مع هذا أن يدع أهم ما خلق له الخلق، وأرسلت به الرسل، وأنزلت به الكتب، ونصبت عليه القبلة، وأسست عليه الملة، وهو باب الإيمان به ومعرفته، ومعرفة أسمائه

---

(١) مجموع الفتاوى ٥/٩.

وصفاته وأفعاله، ملتبسا مشتبها حقه بباطله، لم يتكلم فيه بما هو الحق، بل تكلم بما ظاهره الباطل، والحق في إخراجه عن ظاهره.

وكيف يكون أفضل الرسل ﷺ وأجل الكتب غير واف بتعريف ذلك على أتم الوجوه، مبين له بأكمل البيان، موضح له غاية الإيضاح، مع شدة حاجة النفوس إلى معرفته، ومع كونه أفضل ما اكتسبته النفوس، وأجل ما حصلته القلوب.

ومن أبين المحال أن يكون أفضل الرسل ﷺ قد علم أمته آداب البول قبله وبعده ومعه، وآداب الوطء، وآداب الطعام والشراب، ويترك أن يعلمهم ما يقولونه بألسنتهم وتعتقده قلوبهم في ربهم ومعبودهم، الذي معرفته غاية المعارف، والوصول إليه أجل المطالب، وعبادته وحده لا شريك له أقرب الوسائل، ويخبرهم فيه بما ظاهره باطل وإلحاد، ويحيلهم في فهم ما أخبرهم به على مستكرهات التأويلات، ومستنكرات المجازات، ثم يحيلهم في معرفة الحق على ما تحكم به عقولهم، وتوجبه أراؤهم، هذا وهو القائل ﷺ: (تركتكم على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك) (١).

وكيف يتوهم من لله ولرسوله ودينه في قلبه وقار، أن يكون رسول الله ﷺ قد أمسك عن بيان هذا الأمر العظيم، ولم يتكلم فيه بالصواب،

---

(١) رواه ابن ماجه في باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين ١/١٦ (٤٣)، وأحمد في المسند ٤/١٢٦ (١٧١٨٢)، وصححه شعيب الأرنئوط.

بل تكلم بما ظاهره خلاف الصواب، بل لا يتم الإيمان إلا باعتقاد أن بيان ذلك قد وقع من الرسول ﷺ على أتم الوجوه، وأوضحه غاية الإيضاح، ولم يدع بعده لقائل مقالا، ولا لمتأول تأويلا.

ثم من المحال أن يكون خير الأمة وأفضلها وأعلمها وأسبقها إلى كل فضل وهدى ومعرفة، قصروا في هذا الباب، فجفوا عنه، أو تجاوزوا فغلوا فيه، ومن المحال أن يكون تلاميذ المعتزلة، وورثة الصابئين، وأفراخ اليونان، الذين شهدوا على أنفسهم بالحيرة والشك، وعدم العلم الذي يطمئن إليه القلب، وأشهدوا الله وملائكته عليهم به، وشهد به عليهم الأشهاد من أتباع الرسل، أعلم بالله وأسمائه وصفاته، وأعرف به ممن شهد الله ورسوله ﷺ لهم بالعلم والإيمان، وفضلهم على من سبقهم، ومن يجيء بعدهم إلى يوم القيامة، ما خلا النبيين والمرسلين، وهل يقول هذا إلا غبي جاهل، لم يقدر قدر السلف، ولا عرف الله ورسوله ﷺ وما جاء به [(١)].

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم ١/١٥٧: ١٦٢.